

الفصل الثالث

رؤية اللورد شافتسبري

إسرائيل أنجليكانية؛

مسيحية طبقاً للكتاب المقدس



obeikandi.com

لقد كتب اللورد «المستون» خطاباً لسفيره فى القسطنطينية عن اليهود، وسط محاولاته لمنع انهيار مفاجئ للإمبراطورية العثمانية. قال فى خطابه: «يوجد فى الوقت الحالى بين اليهود المتفرقين فى أنحاء أوروبا شعور قوى أن الوقت يقترب بالنسبة لأمّتهم كى تعود إلى فلسطين... وسيكون مهماً للغاية بالنسبة للسلطان أن يشجع اليهود للعودة والاستقرار فى فلسطين؛ لأن الثروة التى سيعودون بها إلى فلسطين سوف تزيد من الموارد الموجودة فى البلاد التى يحكمها السلطان، ومن ناحية أخرى، فإن اليهود إذا عادوا تحت تصديق ودعوة وحماية السلطان، سوف يكونون بمثابة اختبار لأى نوايا سيئة مستقبلية من ناحية «محمد على» أو خليفته.... وعلى أن أنصح سيادتكم بشدة أن تشيروا على الحكومة التركية بتقديم كل التشجيع ليهود أوروبا بالعودة إلى فلسطين».

وكما رأى وزير الخارجية، فإن اليهود، حيث إنهم سيمنحون مساحات من أراضى وطنهم القديم، سيكونون بمثابة الدعامة وسط البناء الواهى الآخذ فى الانهيار، وهو الإمبراطورية التركية. وسوف يقوم اليهود بمجهود كبير من أجل البقاء على هذا البناء قائماً، وهذه كانت سياسة بريطانيا فى هذا الشأن.

ولقد كان خطاب «المستون» بتاريخ ١١ أغسطس سنة ١٨٤٠م. وفى ١٧ أغسطس نشرت «التايمز» خطة رائدة «لزرع اليهود فى أرض آبائهم»،

وأن هذه الخطة، كما تقول الجريدة، تمر الآن بفحص سياسى جاد. لقد أشادت الجريدة بأن مجهودات اللورد «آسلى» صاحب الخطة (الذى أصبح فيما بعد لورد «شافتسبرى») مجهودات عملية وحكيمة. وقد نشرت الجريدة إحصائية كان يقوم بها «آسلى» عن رأى اليهود؛ لكى يعرف شعورهم نحو موضوع العودة إلى الأرض المقدسة، ومتى سيكونون مستعدين للعودة، وما إذا كان اليهود «ذوو المال والجاه» سوف يشاركون فى العودة ويستثمرون رأس المال الذى لديهم، لو تم إقناع الباب العالى أن يعد اليهود بتوفير القانون والعدالة والأمن لهم ولأراضيهم، وأن حقوق اليهود وامتيازاتهم «سوف يتم تأمينها تحت حماية القوة الأوروبية».

لم يكن هناك شك حول من القوة الأوروبية التى تقصدها «التايمز». لقد خلق هذا المقال نوعاً من الإثارة. لقد سجل اللورد «آسلى» فى مذكراته بعد ١٢ يوماً من هذا المقال قائلاً: «إن الجريدة تنشر سيلاً من الوثائق عن اليهود... يالهل المؤامرات والنزاعات التى تلوح فى الأفق!... ياله من عنف، وباله من كراهية وباله من تركيبة شعورية وباله من مناقشات! يا لكل عاطفة وكل شعور يوجد فى قلوب الرجال!».

من الواضح أن كلاً من «المرستون» وجريدة «التايمز» لم يصل إلى نفس الفكرة فى خلال أسبوع واحد عن طريق الصدفة المحضة، بل إن

كلًا منهما تم قيادته إلى هذه الفكرة ودفعه إليها وإقناعه بها وتحمسه لها. وكان ذلك عن طريق «أنتوني آشلى كوبر» إيرل «شافتسبرى» السابع، والذي أصبح أكثر الشخصيات غير السياسية نفوذًا في العصر الفيكتوري (عصر الملكة فيكتوريا) بعد «داروين».

لقد كانت دوافعه دينية، وليست إمبريالية مثل دوافع وزير الخارجية. لقد كان «شافتسبرى» يمثل الكتاب المقدس، و«پالمستون»، إذا جاز لنا القول، يمثل السيف. لقد كان الزمان هو سنة ١٨٤٠م، والمكان هو سوريا، الأرض المقدسة في عصر سابق، والمركز الجغرافى للمداخل المتنافسة للإمبراطورية. ومن هنا تصور «شافتسبرى» إمكانية وجود إسرائيل أنجليكانية (طبقًا للكتاب المقدس) يتم استعادتها بواسطة المجترة الهروتستانية، ومن ثم يمكن تنفيذ الباباوية وتحقيق النبوءة وخلص البشرية في وقت واحد. وبالطبع سوف يكون «پالمستون» سعيدًا إذا أمكن إرباك الفرنسيين وإنقاذ الترك في نفس الوقت.

لقد قيل عن اللورد «شافتسبرى»: إن وجهه كان الأكثر نقاءً وشحوبًا وجلالاً في «ويستمينستر»، فإن وجهه الكلاسيكى البارد كان دائمًا ما يوحى بمقارنة بينه وبين تمثال وجهه من الرخام. وكما قال أحد معارفه، فإن كل خصلة سوداء فى شعره كانت تبدو أنها تجعدت من فرط إحساسه بالواجب. ومع ذلك فإن ذلك الرجل المشالى ذا المقام الرفيع كان فى الحقيقة رجلاً رءوفًا عطوفًا شديد التدين، وقد أسس

حياته على الاتباع الحرفى للكتاب المقدس . وكان يقول عن الكتاب المقدس: «إنه كلام الله المكتوب من أول حرف فيه إلى آخر حرف ومن آخر حرف إلى أول حرف... ولا شيء غير النص المقدس يمكنه تفسير نص مقدس آخر. لقد كنت سأرفضه لو أنه جاء لى من عند إنسان. ولكنى أقبله وأؤمن به وأباركه حيث إنه نص مقدس... ومثل بنى إسرائيل فإننى أحنى الرأس وأتعبد». وهذا ما جعل «شافتسبرى» رجلاً محبباً للخير. فالكتاب المقدس هو الذى جعله كذلك، لقد كان اللورد «شافتسبرى» من أبناء الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وقريباً بالمصاهرة لرئيسى وزراء (الويج) العظمين فى عصره، وكان الحزبان يسعيان وراءه من أجل قبول منصب وزارى، ولكنه كان دائماً ما يرفض من أجل التفرغ لأعماله الخيرية، وهذا ما جعل «شافتسبرى» تجسيدا لاستخدام النفوذ فى أعمال الخير. لقد كان يؤمن حقاً أنه حام لإخوته المواطنين خاصة المعدمين منهم. لقد كان يؤمن حقاً أن منحه هذه الرتبة والقدرة والنفوذ يلزمه مساعدة الفقراء المعدمين. لقد كان يؤمن حقاً أن أعمال الخير والحب التى تعظ بها الأناجيل هى خلاصة ما يحتاج الإنسان أن يعرفه أو يمارسه، وكان هو شخصياً يمارس هذه التعاليم. لقد كان «شافتسبرى» هو الذى أدخل «مشروع قانون العشر ساعات» (لائحة العمل بالمصانع والتى تمنع العمل لأكثر من عشر ساعات) خلال البرلمان، والذى يرجع له الفضل فى إخماد الثورة العمالية فى المقاطعات الصناعية. كما أدخل أيضاً لائحة المناجم ولائحة الأمراض

العقلية ولائحة مساكن الإيجار، التي أسماها «ديكنز» أفضل تشريعات تم تنفيذها في إنجلترا حتى ذلك الحين.

وقد يتساءل القارئ: ما علاقة كل هذا بفلسطين؟ الفكرة تكمن في أن حماس «شافتسبرى» لليهود، الذين كان ينظر إليهم على أنهم «شعب الله القديم»، كان ينبع من اتباعه الكتاب المقدس الذي جعله ذلك الإنسان المحب للخير.

لقد كان يعمل على إعادة اليهود لفلسطين بنفس الجدية التي كان يعمل بها لإدخال «قانون العشر ساعات»، رغم أن معظم الناس الذين سمعوا عن اللورد «شافتسبرى» لا يعرفون ذلك، ولكن برغم كل ذلك الحماس في صالح اليهود، فهناك شك ما إذا كان اللورد «شافتسبرى» كان يفكر فيهم كأناس لهم لغتهم الخاصة وتقاليدهم الخاصة وتوراتهم الخاصة وشريعتهم الخاصة وقوادهم الروحانيين الذين ظلوا يوقرونهم عبر مئات الأجيال. بالنسبة له ولكل أعضاء مدرسة «إسرائيل من أجل تحقيق البشارة» فإن اليهود هم ببساطة الأداة التي من خلالها يمكن أن تتحقق بشارة الكتاب المقدس. اليهود بالنسبة لهم ليسوا شعباً، ولكن خطأ جماعياً في حق المسيح، ويجب أن يتم إقناعهم بالإيمان به حتى يمكن للعجلة التي سوف تؤدي إلى الرجوع الثاني للمسيح وخلص البشرية أن تدور.

وكما يقول اللورد «شافتسبرى» لكاتب مذكراته الذي اختاره وهو «إدوين هودير - Edwin Hodder» فإن الإيمان بعودة المسيح «كان دائماً مبدأ محرّكاً في حياتي، فأنا أرى كل شيء يحدث في العالم يهد لهذا

الحدث العظيم». وقد كتب هو شخصياً: «لماذا لا نصلى من أجل ذلك فى كل وقت نسمع فيه دقة الساعة؟». وحيث إن عودة اليهود لفلسطين جزء لا يتجزأ من هذا الحدث العظيم كما يقول الكتاب المقدس، فإن «شافتسبرى» كما يقول «هودير»: لم يساوره الشك أبداً فى أن اليهود سوف يعودون إلى وطنهم... وكان ذلك دعاءه اليومى وأمله اليومى. «صلوا من أجل سلام القدس!» كانت هى الكلمات المحفورة على الخاتم الذى كان يرتديه «شافتسبرى» فى يمينه.

ومثل كل الرجال الذين يتملكهم إيمان قوى وراسخ، فإن «شافتسبرى» شعر بلمسة الرب على كتفه تحته على العمل شخصياً من أجل ذلك «الحدث العظيم». وكان «شافتسبرى» فى رفقة عظماء العصر الفيكتورى لا يشك أبداً فى إمكانية استخدام البشر كأداة لتحقيق أهداف إلهية. هذا المبدأ لم يكن مقبولاً لدى اليهود. وظل كذلك حتى أوائل سنة ١٨٦٠م. فى السابق كان المسيحيون يستعجلون بشدة عودة مسيحيهم، إما لأنهم كان يشعرون أكثر بالحاجة إلى الخلاص، وإما لأن روح التسليم بالقدر بعد طردهم من الأرض المقدسة فى الحروب الصليبية لم تكن قد أصابتهم بعد. لقد شعروا بأهمية الحدث مرة أخرى فى إنجلترا أثناء «الصحوة الإيقانجلىكية»، فقد عادت حركة البندول إلى الناحية الأخرى من بعد الهيلينية التى اتسم بها القرن الثامن عشر، إلى النزعة العبرية الجادة مرة أخرى.

مع حتمية العودة إلى العبرانية، فإننا نجد «شافتسبرى» يستخدم نفس عبارات جماعات أصحاب الحناطير (الكارتات) والبيوريتانز المتشددة في التعبير عن تأييده لاستعادة إسرائيل. لم يكن ذلك لأن العبرانية بمقياس «ماثيو أرنولد» لها أى علاقة باليهود الحاليين، ولكن لأن هذه المبادئ والمعتقدات موروثه من العهد القديم. وكلمة عاد المسيحيون إلى العهد القديم، وجدوا أنه يبشر بعودة شعبه (اليهود) إلى أورشليم، وشعروا أن عليهم واجب المساعدة فى تحقيق هذه البشارة.

لقد كانت إنجلترا فى زمن «شافتسبرى» على علم بالكتاب المقدس، كما كانت فى زمن «كرومويل»، إن المناخ الدينى قد تهيأ تقريباً بشكل كبير منذ تلك الأيام العارضة التى تولى فيها «بيت» عقد اجتماعات الوزارة أيام الأحاد.

خلال القرن الثامن عشر، توهجت النزعة الدينية القديمة للبيوريتانز فقط عند جماعة الـ «Nonconformists». لقد عادت هذه النزعة الدينية إلى المسيحية بعد صدمة الثورة الفرنسية «الملحدة» لتدفى القلوب المسيحية الباردة وتملاها بالورع. وبدأت هذه الصحوة التبشيرية تؤثر بشكل كبير فى الطبقة العليا التى أصبحت تهى نفسها معنوياً وسياسياً - بحرص شديد - بسبب الخوف مما كان يحدث فى فرنسا. ومن أجل تجنب الابن الفظيع للمدرسة العقلانية، الثورة، فقد كانت هذه الطبقة مستعدة للانضمام اللافكرى إلى المذهب الإيقانجليكانى حتى لو تطلب

الأمر الإيمان والأعمال الصالحة والارتياح في كل ما هو ملحد . وأصبح الذهاب إلى الكنيسة والوعظ والإيمان المطلق بالكتاب المقدس من مظاهر الذوق الرفيع مرة أخرى ، لقد اقتطف تريفيليان نصاً من أرشيف السجل السنوي في إنجلترا لسنة ١٧٩٨م يقول: «لقد أصابت الدهشة أفراد الطبقة الدنيا في جميع أنحاء إنجلترا حينما رأوا الساحات المؤدية إلى الكنائس مليئة بالعربات ، وهذا المظهر الجديد جعل أهل الريف البسطاء يتساءلون عما يحدث». كل ما في الأمر أنه قد ظهرت «روح البيوريتانز مرة جديدة - Neo - Puritanism» ، وأصبح على إنجلترا أن تحقق نفسها بجرعة من الورع مرة أخرى . وكان الإيقانجليكيون مثل البيوريتانز محلاً للسخرية بسبب هذه النزعة الدينية ، والشعور بأن لديهم مهمة دينية معينة ، والوعظ المستمر والتعبد أيام الأحاد والتحدث بالكتاب المقدس . وهناك أمزوجة قيلت عن صراع «البيوريتانز - Puritans» مع الأسرة الحاكمة: إن أحد طرفي الصراع مخطئ ولكنه رومانسي ، والطرف الآخر على صواب ولكنه مثير للاشمئزاز .

وعلىنا أن ننظر إلى الإيقانجليكيين من نفس المنظار . لقد لاصق المزيد من السخرية سمعة اللورد «شافتسبرى» ؛ حيث إنه كان النموذج الأصلي للإيقانجليكيين والزعيم المعترف به لحزبهم . ومما يؤلم المؤرخين الاقتصاديين والماركسيين و«الفاييين - Fabians» أنهم يعترفون أن «مشروع قانون العشر ساعات» الذي يعتبر التشريع الأساسي للاتحة

العمال فى القرن التاسع عشر، جاء من أحد نبلاء الطبقة العليا نتيجة مشاعره الخاصة تجاه الإنجيل. ومما يؤلمهم أيضاً أنهم يعترفون بأن إلغاء تجارة الرقيق لم يتحقق بسبب قانون المكسب والخسارة التجارى، وإنما تحقق نتيجة للنزعة الإنسانية الجديدة لدى الإيڤانجيليين. ولكن إذا أخذنا مثلاً لأحد المؤرخين الذين لا يتعلقون بأحبال الاقتصاد مثل «هاليڤى» نجد أنه يقول: إنه من المستحيل المغالاة فى تقدير تأثير الإيڤانجيليين فى عصرهم. لنفرض أنهم لم يكونوا مفكرين أو راجحى الفكر أو يمتازون باللياقة أو الأناقة، ولنفرض أنهم بما فيهم اللورد «شافتسبرى» كانوا إلى حد ما سخفاء، لكنهم كانوا هم الأساس فى أوائل العصر الفيكتورى، وقد استمر أثرهم طويلاً بعد أن ولت أيامهم. حتى أعداء الدين فى القرن التاسع عشر كانوا متدينين. وزلزلت المعركة الطويلة بين الإيمان والعلم، أو بين المدافعين عن الكتاب المقدس كوحى وبين الذين يكشفونه كتاريخ، العصر الفيكتورى، وفرقت بين العائلات والأصدقاء كما لو كانت حرباً أهلية. ولكن كلا الجانبين كان لديه نفس الشعور بجدية ونبيل الهدف الذى توارثوه من الپيوريتانز. لم تكن هناك أى مبادئ منحلة أو متحررة لدى أى من الفريقين.

لقد أصبح فى أيامنا هذه تقريباً من المستحيل أن نقدر بإنصاف دور الدين فى التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الماضى. نحن لا نستطيع أن نحكم على دور الدين لأننا نفتقده. إن الدين ليس جزءاً من

حياتنا على الأقل بالمقارنة بدور الدين فى الحياة قبيل القرن العشرين. ولكن القرن العشرين هو وليد القرن التاسع عشر، وإذا كانت المجلثرا فى القرن العشرين تتولى إعادة إسرائيل إلى فلسطين؛ فذلك لأن المحرك الرئيسى للقرن التاسع عشر فى مجمله هو الدين. لقد اختار «تريفيليان» هذه الشخصيات الأربع، «شافتسبرى»، و«جلادستون - Gladstone»، و«الجنرال جوردن - General Gorden»، والدكتور «ليفينج ستون - Living Stone» كأبرز أربع شخصيات فى ذلك العصر؛ لأن كلاً منهم اعتبر الحياة تجربة دينية، أما «ستارتشى - Strachey» سواء اعترف بذلك أم لا «فإن الشخصيات الأربع الفيكنتورية البارزة التى اختارها هم: «الكاردينال مانينج - Cardinal Manning»، و«فلورنس ناتيينجيل - Florence Nightingle»، والدكتور «أرنولد - Dr.Armald»، والجنرال «جوردن» لنفس السبب. كل من «جلادستون» و«مانينج» لهما بدايات إيفانجليكية، ورغم أن أحدهما انتهى به الأمر إلى الكنيسة العليا والآخر إلى الكنيسة الرومانية، فإن كليهما اعترف بفضل «شافتسبرى». وفى الحقيقة لقد أسماه «مانينج» الشخصية المثلة للعصر.

كان اللورد شافتسبرى يصرح قائلاً: «أنا إيفانجليكى الإيفانجليكيين». لقد كانت حركة تبشيرية. لقد عقدوا العزم على أن يحولوا كل من هو ليس مسيحياً إلى المسيحية حتى يشاركهم الخلاص، خاصة اليهود.

فاليهود بالنسبة لهم هم العامل الذى توقف عليه كل شيء، بدونهم لن يتحقق الرجوع الثانى للمسيح. فاليهود هم العامل الأوسط فى القياس المنطقى الذى لا يمكن فصله بالنسبة للإيقانجليكيين.

فنبوءة الكتاب المقدس = عودة إسرائيل وتحولها للمسيحية = القدم الثانى للمسيح. وبالطبع كان على الإيقانجليكيين تنحية خطر أصحاب المذهب العقلى الذى إذا سمح لهم بتفنيده هذا القياس لضاع كل شيء؛ حيث إن أصحاب المذهب العقلى كانوا ينفون العلاقة بين العهد الجديد والقديم من حيث بشارة عودة المسيح، ويتركون بينهما العلاقة التاريخية فقط. وهذا ما كان يدركه اللورد شافتسبرى تماماً. كان دائماً ما يدعو قائلاً: «رب أعطنى القدرة والسمو» لكى يجتث «القدم البغيض للمذهب العقلى القدر من جذوره». وبعد قرابة ثلاثين عاماً لم يزل شافتسبرى فى غير حاجة لذلك العلم الحديث الذى كانوا يحاولون أن يضعوه فى مقابل الرب.

وكان يكره على وجه الخصوص هؤلاء المدافعين عن الكتاب المقدس، والذين كانوا يحاولون التوفيق بينه وبين العلم. وفى مدخل إحدى المذكرات التى كتبت سنة ١٨٧١م نجد هذه الكلمات: «كلام الوحى الإلهى يخاطب القلب وليس العقل. إن الله يهتم قليلاً نوعاً ما بعقل الإنسان، وإنما يعنى كثيراً بقلبه، وإن مجرد ريبالين من الإيمان والحب أهم كثيراً بالنسبة له من خزانة كاملة من الفكر والمعرفة. إن الشيطان يحكم فى عقل الإنسان والرب يحكم فى قلبه».

إن هذه السطور الرائعة تعبر عن لب الفلسفة الدينية المسيطرة في النصف الأول من العهد الفيكتوري. وهذا ما يفسر كيف أن الأمر كان ممكنًا بالنسبة للإيقانجليكيين أن يبذلوا الطاقة الهائلة والعزيمة القوية في وهم تحويل اليهود إلى المسيحية. ولو كان هناك مزيد من العقلانية وقليل من الروحانية لعرفوا أن نجاح هذا المشروع مشكوك فيه، ولكن كما قال شافتسبري فيما بعد: إن قبول الشك معناه السماح بإدخال قدم الشيطان من الباب. ولذلك لم يكن لدى الإيقانجليكيين الشك. بل بالعكس، فإن «تشارلز سايمون» الزعيم الإكليريكي للحزب يعتبر عملية تنصير اليهود كما نقل عنه كاتب مذكراته: «ربما تكون أخلص اهتمامًا في حياته».

وبين كل الجمعيات الإنجيلية التي توالدت مع نهاية ذلك القرن وبداية القرن التالي، تعتبر «جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود» أبرز هذه الجمعيات لسنوات عديدة. وكانت قائمة رعاة هذه الجمعية من النبلاء تلمع كالذهب لقد وضع الحجر الأساسى لمصلى الجمعية ومدرستها عام ١٨١٣م دوق «كنت»، أخو الملك ووالد الملكة «فيكتوريا». وكان يعتبرها «باسيل وود» الربى الإيقانجليكى العظيم «مؤسسته المفضلة» بين أسراب الجمعيات التي تسمى وراء عضويته. لقد أصبحت مكانة هذه الجمعية تهدد مكانة «جمعية الكنيسة التبشيرية» التي صار وعاظها يقولون بغضب: «هل هو إله اليهود فقط؟».

لقد أصبحت «جمعية اليهود»، حيث إن هذا هو الاسم الذى اشتهرت به، هى المنبر الرئيسى الذى من خلاله صار اللورد «شافتسبرى» ورفاقه المحتمسون يتابعون حلمهم الجميل، وهو إنشاء أبرشية أنجليكانية فى القدس، وقيام إسرائيل أنجليكانية على أرض فلسطين.

ظهرت هذه الجمعية عام ١٨٠٨م وسط الارتفاع المفاجئ للحماس الإيقانجليكى الذى نتج عنه إنشاء جمعيات مثل «الجمعية البريطانية والأجنبية للكتاب المقدس»، و«جمعية الأرض الدينية» و«جمعية الكنيسة التبشيرية» وجمعيات أخرى كثيرة.

ولكن ظلت «جمعية اليهود» تسير قدماً نحو هدفها المعلن بسلسلة من «الخطب القائمة على البرهان» مساء يومى الأربعاء والأحد، والتى تهدف لإثبات أن «يسوع» هو مسيح اليهود ومخلصهم. لقد تم استئجار كنيسة من الفرنسيين البروتستانت وتم إعادة تسميتها كـ«مصلى اليهود». وتم إنشاء مدرسة، على أمل أن تنجذب إليها العائلات اليهودية وترسل إليها أولادها نتيجة العرض المقدم للتعليم المجانى. وفى خلال ثلاث سنوات استطاعت المدرسة أن تفخر أنها بحوزتها أربعمائة تلميذ، ولن يلحظ غير الفضولى أن أقل من خمس هؤلاء التلاميذ من اليهود.

وبعد مرور خمس سنوات على إنشاء الجمعية، أصبحت تحتوى على قائمة تضم حوالى ألفين من المتبرعين، والذين تملأ أسماؤهم

خمسين صفحة من الحجم الصغير، وتراوح تبرعاتهم بين بضعة شلنات إلى مائة جنيه. وقد حصلت على قطعة أرض خاصة بها وتم إعادة تسميتها «مكان فلسطين»، حيث تم تشييد مصلى صغير ومدارس والجامعة العبرية للمبشرين. وقد نشرت الجمعية جريدتها الشهرية «العقل اليهودي». وبحلول عام ١٨٢٢م كان قد ذاع صيت الجمعية حتى أصبحت اجتماعاتها تقام في «مانسيون هاوس - Mansion House» يرأسها اللورد «مايور - Lord Mayor». وبمجيء عام ١٨٤١م انضم رؤساء أساقفة كل من «كانتربري» و«يورك» وثلاثة وعشرون مطراناً أو «تقريباً كل منصة الأساقفة» إلى قائمة حضور الجمعية، كما انضم أيضاً إلى القائمة دوق ونبلاء الأرسطراطية البريطانية. وبحلول عام ١٨٥٠م كان قد أصبح للجمعية ثمانية وسبعون مبشراً يعملون في اثنين وثلاثين مكتباً فرعياً من لندن إلى القدس، بنفقات تبلغ ستة وعشرين ألف جنيه.

وفي التقارير السنوية للجمعية، التي أخذنا منها هذه الحقائق المفصلة بالفخر والسعادة، فإن البيان المتواضع الوحيد هو عدد اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، وأحياناً كانت تحذف هذه الإحصائيات تماماً من الخجل. في عام ١٨٣٩م وبعد ثلاثين عاماً من العمل، فقد استطاعت الجمعية أن تحصل على عدد مائتين وسبعة بالغين يهود اعتنقوا المسيحية في لندن، أو متوسط ستة أو سبعة أشخاص سنوياً. أما بالنسبة للعمليات التبشيرية الخارجية، فقد أقرت الجمعية - على سبيل المثال - أن في «بغداد» والتي بها

١٠٠٠٠ يهودى وثلاثة مبشرين، تم تنصير يهوديين، ومن «سميرنا»
والتي بها ١٥٠٠ يهودى لم يتم تنصير أحد وتم إلغاء الإرسالية
التبشيرية هناك، لقد حققت الجمعية نجاحًا بلا شك، ولكن ليس
بالقدر المطلوب. على أى حال فإن ذلك لم يمثل مشكلة. فإن رعاية
الجمعية الخيريين ظلوا ينشرون المسيحية بين اليهود بناءً على قول
«بولس الرسول»: بدون اليهود ستظل الكنيسة غير كاملة إلى الأبد.
ولكنهم كانوا لا يدركون أن ذلك المشروع لا يحظى إلا بقدر ضئيل من
الاهتمام لدى اليهود. وأنه لمدهش حقًا ذلك التفاؤل الذى تمتع به
العاملون بالجمعية تجاه المهمة التى فشل فى إنجازها أعظم المبشرين فشلاً
ذريعاً. لقد كانوا دائماً يرددون «رسالة بولس للعبرانيين» لتبرير عملهم
ولكن لا يبدو أبداً أنهم تساءلوا: لماذا قد حرم أهل «بولس» (اليهود)
عليه النجاح الذى حققه فيما بعد بين الجنتيل^(*)؟ أو يسألون أنفسهم:
لماذا يجب على اليهود بعد ١٨٠٠ عام أن يجدوا آراء الجمعية أكثر
إقناعاً من آراء «بولس» التى أنكروها؟ ولكن إخلاصهم وهدفهم الجاد
كانا فى غاية الوضوح. إن الكاهن «أليكسندر ماكاول - Alexander
Maccaul» الرئيس التنفيذى للعمل التبشيرى بالجمعية وأستاذ العبرية
بجامعة «الملك» بلندن، لم يكن فقط أعظم عالم فى العبرية فى عصره
بانجلترا، ولكنه كان رجلاً عاش وعمل بين يهود روسيا وبولندا، وكان
على علم بأصول الديانة اليهودية، وكانت هذه من مميزاته الرفيعة. أما

(*) الجنتيل: غير اليهود.

«لويس واى - Lewis Way» وهو محام ثرى كرس ثروته لجمعية اليهود، وكان له الفضل فى «أول دفعة كبيرة فى سبيل القضية اليهودية»، فقد كان يتأجج بداخله نفس الإيمان بأن إفادة العالم أجمع ستحقق بالنجاح المطلق لعمله. لقد أتى «واى» إلى الجمعية بطريقة تطابق نزعة الإيفانجليكيين المجيدة المعادية للعقلانية. وطبقاً للأسطورة التى تُروى كل اجتماع سنوى، رغم أنه تم التشكيك فيها، فإن «واى» كان معجباً بقطعة أرض من البلوط رآها أثناء التريض بحصانه يوماً من «إكسماوث» إلى «إكستر»، وقد أخبره صديق له أن قطعة الأرض هذه تملكها سيدة تدعى «جين پارميتتر - Jane Parmenter»، وأنها قد أمرت فى وصيتها بالألا تقطع أشجار البلوط هذه حتى يتم إعادة اليهود إلى فلسطين. وقد عاد السيد «واى» إلى بيته متأثراً بهذا الاعتقاد الطريف ليعيد قراءة الكتاب المقدس حتى وصل إلى البشارة التى جعلته يترك القانون ويدرس اللاهوت ويلتزم بأوامرها ويتبرع بثلاثة عشر ألف جنيه ليخرج جمعية اليهود من ديونها. وبعد ذلك ظل «واى» الممول المالى الرئيسى للجمعية لمدة عشرين عاماً. وقد موّل عملية طبع الكتاب المقدس باليدشية [العبرية فى ألمانيا]، ونشر الطقوس الدينية لكنيسة المنجلترا باللغة العبرية، وقد زار كلاً من قيصر روسيا وملك بروسيا ليكسب تأييدهما الرسمى، لإقناعهما أن «تنصّر اليهود على أيديهما يمثل الفائدة الكبرى للشعب اليهودى وللعالَم أجمع». ومما أثار اشمئزاز رؤساء كليات «دوبلن» الذين علقوا آمالاً كبيرة على ذلك

الدارس العبقري الشاب «ماكاول»، أنه ترك الجامعة وذهب إلى «وارسو» كمبشر مسيحي لليهود. وأثناء رحلته للخارج كما تقول ابنته في مذكراتها، فإنه قرأ «رسالة بولس للبرانيين» ثلاث عشرة مرة، وقد عقد العزم على أن يكون بارعاً في النص العبري حتى إنه استطاع أن يكتب أسفار موسى الخمسة بخط اليد ثمانى مرات خلال ساعات الفراغ المتراكمة في حياته. ولا عجب في أن ابنته التي ولدت في وارسو قد تعلمت العبرية في سن الثالثة، وفي الرابعة استطاعت أن تقرأ الكتاب المقدس وتتحدث الألمانية وتجدد اليديشية، وفي سن الثانية عشرة قامت بتدريس العبرية في المدرسة التبشيرية بمدرسة «مكان فلسطين».

وعندما عاد «ماكاول» إلى لندن سنة ١٨٣١م تم تعيينه رئيساً لكلية جمعية المبشرين، ولعب دوراً بارزاً في توضيح أحوال الشعب اليهودي للمواطنين الإنجليز، الذين - كما تقول ابنته - «يعرفون القليل عنها ويكثرثون أقل». وفي ظل جهوده لإقناع المترددين اليهود بمهمته، فقد ألف كتاباً دعائياً بعنوان: «السبل القديمة» يشرح فيه نظرية أن المسيحية هي النتاج المنطقي لعقيدة موسى، في حين أن الكتابات الحبرية في العصور الوسطى حادت عن الطريق الصحيح. وتذكر ابنته السيدة «فين - Finn» تلك المناقشات التي كانت تقام في مكتبة والدها ظهيرة كل سبت، عندما كان يحضر سادة من اليهود ليناقشوا الأمور الدينية، وكانت هي وأخوها الأصغر يستمعان لتلك المناقشات من فتحة الباب.

وهذه الشابة اتخذت لها بيتاً في القدس فيما بعد لمدة ثمانية عشر عاماً، كزوجة للقنصل البريطانى هناك، وكانت تعمل مع زوجها على إعادة فتح الأرض المقدسة «لأصحابها الحقيقيين وهو الشعب العبرى»، وأن تكون حلقة الوصل الحية بين «شافتسبرى» و«بلفور». لقد قامت فى سن الخامسة عشرة بكتابة نسخة من خطاب شافتسبرى التاريخى لـ «المستون»، والذى يطلب فيه أن تكون إنجلترا الراعى لعملية عودة اليهود. لقد نسخت هذا الخطاب على «ورقة فولسكاب صفراء ذات حواشٍ ذهبية لامعة» وقدمتها كهدية لوالدها، وقد مات سنة ١٩٢١م فى سن السادسة والتسعين بعد أن عاش ليرى إنجلترا قد وضعت فلسطين تحت الانتداب.

من المستحيل ألا يعجب المرء بمعرفة وإخلاص وحب هؤلاء الرجال أمثال ماكاول وشافتسبرى، فبعد أن أصبح الأخير رئيساً لجمعية اليهود سنة ١٨٤٨م، ظل يحضر كل اجتماع سنوى لها لمدة سبعة وثلاثين عاماً حتى مات، وكان أيضاً يتلقى دروساً فى العبرية من صديقه «الحاخام ماكاول». ولكن يظل لدى المرء الشعور بالتفاوت الهائل بين هذا السعى الجاد وتلك النتائج الضئيلة. فقد كان هذا البناء الهائل قائماً على الرمال من حيث نشر المسيحية بين اليهود، وتم تكريسه لهدف لا يزيد واقعية عن السراب فى الصحراء.

وقد كان هناك نقاد للجمعية أعلنوا عن شكوكهم فى نجاحها من

البداية، وحتى في تقرير الجمعية السنوى لعام ١٨١٠م اعترفت الجمعية أنها يتم السخرية منها بسبب «توقعاتها الخيالية اليوتوبية الحمقاء»، ولكونها مجالاً لذلك «الحماس». وفي الواقع فقد تم اعتبار العضوية في هذه الجمعية دليلاً على الجنون تم استخدامه في إحدى قضايا الجرائم سنة ١٨٦٣م. يقول المدعى: «هل تعلم يا سيدى اللورد أنها عضوة في جمعية تنصير اليهود؟» ويجيء الرد: «وهل تعلم أننى رئيس هذه الجمعية؟» فلم يكن الرئيس أحداً غير شافتسبرى نفسه.

مثل هؤلاء النقاد كانوا يعتبرون أن مسألة تحويل اليهود إلى المسيحية لن تكون إلا بمعجزة، مثل ذلك التدخل الإلهى الذى أنقذهم من فرعون، وأن الجهود البشرية لاستعجال ذلك تعتبر عملاً وقحاً (ويذكر أن اليهود الأرثوذكس كانوا يستخدمون نفس الاعتراض). وكان النقاد يرددون متذمرين أن مثل هذا الوقت والمال الكثير كان من الأفضل إنفاقهما فى خدمة الكنيسة المسيحية بدلاً من الجرى وراء اليهود. وكان أكثرهم غضباً هو الكاهن «هنرى هاندلى نورس - Henry Handley Norris» الذى أصدر كتاباً كاملاً سنة ١٨٢٥م يلعن فيه الجمعية وكل أعمالها فى ستمائة وتسعين صفحة من الطعن الغاضب. وهذا الرجل الذى كان يُعرف «بصانع الأساقفة» تصادف أن كان قساً لدى والد شافتسبرى الذى كان الإبرل السادس، والذى كان على خلاف مع ابنه شافتسبرى وكان عجوزاً قاسياً مستبدًا، وربما كان ذلك السبب فى حنين ابنه لاتباع الجانب المضاد لآرائه.

وردًا على هذه الانتقادات، فإن المدافعين عن الجمعية ظلوا باستمرار يشجعون على إصلاح الخطأ الذى تم ارتكابه طويلاً فى حق «شعب الله القديم». وكان يقنعون أنفسهم أن تحويل اليهود إلى المسيحية يمثل إلى حد ما تعويضاً لليهود عن الاضطهاد المسيحى لهم. ويناقد الكاهن «و.ت. جيدنى - W.T. Gidney» مؤرخ الجمعية بعد مائة عام، كل العلاقات التاريخية ليوسف الرامى، أو لواحد أو أكثر من الحواريين الذين وعظوا بالإنجيل فى إنجلترا، ويصر على أنه ما دامت الرسالة الأصلية للخلاص جاءت عن طريق «يهودى مسيحى»، فإن على بريطانيا إعادة المسيحية إلى يهودى اليوم رداً للجميل، إذا لم يكن هناك سبب آخر.

لقد كان للجمعية فى الواقع مهمة مزدوجة، كان عليها إقناع اليهود بالكف عن «الأخطاء والسخافات الناتجة عن آرائهم الحالية الخاطئة»، وكان عليها أيضاً إقناع المسيحيين المشككين أن اليهود برغم الاعتراف بأنهم أناس متكبرون، متصلبو الرأى ومظلمو القلب، وغارقون فى الانحطاط الأخلاقى والعناد والجهل بالإنجيل، إلا أنهم ليسوا فقط يستحقون الخلاص، بل إنهم أيضاً عنصر حيوى فى تحقيق أمل المسيحيين بالخلاص. وقد حققوا ذلك بنوع من الإقلاص مكن العقل التبشيرى أن يتجاوز المنطق. لقد قال «بولس»: بالنسبة للإنجيل فهم أعداء من أجلكم، ولكن فيما يتعلق بالانتخاب (الاختيار) فهم أحياء

من أجل الأب. والحقيقة القديمة والتي قد تم نسيانها وهى أن رسالة يسوع والموجهة إلى «أقربائه بالشحم واللحم» اليهود أصلاً، قد أصبحت النص الأساسى لدى الوعّاظ الإيڤانجيليكيين. وقد روع «تشارلز سايمون - Charles Simeon» مستمعيه فى خطبة ألقاها سنة ١٨١٨م يذكرهم فيها بأن «الذى يشفع لنا الآن فى هذه اللحظة، وهو عند اليد اليمنى للرب، يهودى». ومن أجله يجب أن يعتبروا اليهود «أكثر شعب فى العالم أهمية، وأعظم المحسنين فى الجنس البشرى». وبالمثل فإن «هور - Houré» قد هنا أعضاء الجمعية فى الاحتفال اليوبلى لسنة ١٨٥٨م بأنهم «هؤلاء الذين يحبون الشعب اليهودى، وفوق كل ذلك، هم مسيحيون يحبون الملك اليهودى».

إن ذلك فى الحقيقة لم يكن حباً للشعب اليهودى ولكن قلقاً على الروح المسيحية، وكان ذلك هو الحافز الذى دفع كل هؤلاء الرجال الجادين الأخيار. لقد كانوا مهتمين فقط بإعطاء اليهود الهدية المسيحية التى لم يردها اليهود، والتحرير المدنى الذى لم يرده اليهود والذى كانوا يعارضونه باستمرار. وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، تمت مناقشة مشروع «قانون التحرير» عدة مرات قبل تشريعه الفعلى سنة ١٨٥٨م، وهذا القانون يسمح لليهود بدخول البرلمان بدون النطق بالقسم المعتاد فى البرلمان، وهو «الإيمان الحق لدى المسيحى». وفى كل مرة تم فيها مناقشة مشروع القانون نجد اللورد «شافتسبرى» يعارضه بشدة على أساس أن التنازل عن ذلك القسم الرسمى يعتبر

خرقًا للمبادئ الدينية . ولم يكن الإيفانجليكيون بذلك الحب لـ «شعب الله القديم» هم الذين أفسحوا المجال لليهود بأن يحصلوا على حقوق كاملة كمواطنين إنجليز، ولكن «الليبراليين - Liberals» الأقل ورعًا هم الذين حققوا ذلك . لقد كان اللورد «ماكاول» الذي يتحدث من الناحية التاريخية، وليس اللورد شافتسبرى من الناحية النبوية، هو الذى ألقى ذلك الخطاب البليغ من أجل «التحرير»، والذي يذكر فيه أنه فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا «همجية مثل غينيا الجديدة» . كان لدى اليهود مدنهم البارزة وقصور من خشب الأرز ومعبدهم الرائع ومدارسهم التعليمية»، ولو أنهم قد أصبحوا فى ظروف أقل شأنًا الآن «أفلا يجب علينا الآن بدلاً من ذلك أن نعتبر المسألة عابرة ونندم على أنفسنا؟» يجب أن نعرف أن «شافتسبرى» قد قبلَ قانون «التحرير» حينما وجد تأييد المجلسين له، وطالب مسرعًا برفع السير «موسى مونتيفيور - Moses Montefiore» إلى مرتبة النبلاء . وقد كتب إلى «جلادستون» قائلاً: «إنه سيكون يوماً عظيماً لمجلس الأعيان (اللوردات) حينما تدرج أسماء اليهود القدامى فى قوائم مشرعى الموارث فى إنجلترا» . ولم تلق وجهة النظر هذه ترحيباً لدى اللوردات، ولكن شافتسبرى كان غير تقليدى كالعادة .

قد يمكننا تجاهل «جمعية اليهود» لو أنها ركزت كل اهتمامها فى تنصير اليهود . ولكن ذلك الرابط الحيوى، وهو استعادة إسرائيل، هو الذى أعطى لعمل الجمعية هذه الأهمية التاريخية . لقد بدأت الأمور

تتحرك بعد سنة من تولى الملكة «فيكتوريا» لعرش إنجلترا، فى سنة ١٨٣٨م. وكان ذلك العام كما نذكر هو الذى وقعت فيه سوريا (ومعها فلسطين) فى فوضى تحدى محمد على للسلطان، والذى نتج عنه التدخل الأوروبى، لقد كانت بريطانيا فى ذلك العام أول قوة أوروبية تؤسس قنصلية لها فى القدس، والذى تم تعيينه كان نائباً للقنصل، ولكنها كانت بداية. وقد تصادف أنه فى مارس سنة ١٨٣٨م بدأ العداء التركى المصرى يحتدم تجاه أزمة أخرى، حينما شجعت الثورة العربية المحلية ضد إبراهيم باشا ولى العهد وابن محمد على، السلطان على أن يتسلح من أجل محاولة أخيرة يسحق بها محمد على المغرور. وقد قام «المارستون» من أجل السلطان بإبرام معاهدة تجارية مع الوالى، والتي تتضمن تزويد القنصلية البريطانية بالقدس بالمؤن. يمكن للمرء أن يجزم أن «آشلى - Ashely» كان الأساس فى كل شىء يتعلق بالقدس، وهو فى الحقيقة الذى رأى هذه الفكرة كخطوة أولى لاستعادة إسرائيل. لقد كان «المارستون» هو الذى أرسل إلى القنصل بوجهه «أنه سيكون جزءاً من واجبك كنائب قنصل بريطانى فى القدس أن توفر الحماية لليهود بصفة عامة، وسوف يكون عليك فى أقرب فرصة الإبلاغ.. عن الوضع الحالى للسكان اليهود فى فلسطين». ولكن هذه لم تكن فكرة «المارستون» نفسه. إن وزير الخارجية كما كان آشلى يقول عنه أسقاً لم يكن يميز النبى موسى من السير «سيدنى سميث!»، ولكنه يمكن قبوله على أساس عملى وهو المصلحة البريطانية. وفى هذه الحالة أكد

«آشلى» الفائزة من وجود العنصر البريطانى فى الساحة فى ذلك الوقت الحرج، ووضع آشلى فى رأس بالمستون فكرة استخدام اليهود كوتد بريطانى فى الولاية العثمانية. لقد احتفظ آشلى بدافعه السامى وراء ذلك، ودون سرّاً فى مذكراته أن «الرب قد وضع فى قلبى رؤية هذه الخطة من أجله، وأعطانى القدرة على التأثير على بالمستون». ومن الغريب أن تأثير آشلى على بالمستون الذى ينتمى للحزب المعارض له كان دائماً أكبر من تأثيره على الوزراء المحافظين لدى حزبه. وليس الأمر غريباً لأن آشلى كان زوج ابنة زوجة بالمستون، إلا أنه غريب لأن كلا الرجلين المتناقضين كان مغرماً ببعضهما البعض، رغم أن أحدهما كانت عيناه على الدنيا والآخر كانت عيناه على الآخرة. لقد كان بالمستون يقدر نصيحة الشاب آشلى فى الأمور الدينية وكان كرئيس وزراء لا يعين من جانبه مطراناً كما يقولون إلا بتوصية «آشلى». وكان «آشلى» من جانبه يعرف أن زعيمه الجرىء المقعم بالحيوية يمكن الاعتماد عليه فى هدفه الجرىء أو الأسمى، والذى سوف ينظر إليه رجال «پيل - Peel» اللامبالون أو رجال «أبيردين - Aberdeen» الحذرون، بحذر وتردد. إن حماس آشلى لتعيين القنصل قد دون كاملاً بالحروف الفيكترورية المائلة، وكان مليئاً بعلامات التعجب. لقد استأذن هذا الصباح ليترك «يونج - Young» الذى تم تعيينه للتو كنائب قنصل جلالتهما فى القدس. ياله من حدث عظيم! إن المدينة القديمة لشعب الله على وشك أن تستعيد مكاناً لها بين الشعوب،

وانجلترا هي الأولى في ممالك «الأغيار - Gentile» التي تتوقف عن أن تطأها.

قد يبدو أن المعانى التي استشفها آشلى من وراء تعيين نائب للقنصل فى القدس مبالغ فيها، ولكن آشلى لم يره مجرد ممثل لوزارة الخارجية ولكنه كان يراه مشعاً بأمل البشارة، و«معتمداً» إذا جاز لنا القول، لمملكة داود والقبائل الاثنتى عشرة. فى الحقيقة لقد رتب آشلى ذلك الأمر بحيث يغطى نطاق سلطة القنصل البلد كلها فى إطار الحدود القديمة للأرض المقدسة، وأن القنصل الذى يتم اختياره يجب أن يكون شخصاً متعاطفاً مع القضية، لقد تولى يونج مهمته كقنصل بحماس. فى الحقيقة، لقد اتبع إرشاداته بحماس شديد جداً لدرجة أن رئيسه، القنصل العام بالإسكندرية، كان يشكو لوزارة الخارجية أن السيد «يونيغ» «يمنح الحماية البريطانية بدون شرط أو تمييز لكل اليهود»، ولكن وزارة الخارجية أيدت يونج بوعده «بكل الدعم المطلوب».

وفى ذلك الوقت كان آشلى يقرأ كتاب اللورد «ليندساي - Lindsay» الذى نُشر لتوه وهو «رسائل من مصر وسدوم والأرض المقدسة»، وكان ذلك أول كتاب فى سيل كتب الرحلات إلى الأرض المقدسة، والتي أشبعت الشعب البريطانى بقرابة أربعين كتاباً سنوياً على مر الأربعين سنة التالية. لقد استغل آشلى الفرصة لكى يعلن على الملأ رؤيته لاستعادة

«الأمة اليهودية» تحت رعاية الكنيسة الأنجليكانية. إن التغيير السياسي الذى طرأ على فلسطين كممنطقة نفوذ بريطانية لم يكن قد تبلور فى ذهنه بعد، ولكن البوادر الأولى لفكرة أن تصبح انتداباً بريطانياً ظهرت فى مقالة له عن كتاب «ليندساي»، والتي كتبها لصحيفة «كوارترلى ريفيو - Quarterly Review» عدد ديسمبر ١٨٣٨م.

وسنأخذ كدليل، الخطاب الذى أرسل له من شخص يهودى تحول إلى النصرانية وصل مؤخراً من «وارسو»، تحدث فيه عن تأجج المشاعر بين يهود روسيا وپولندا، وأن وقت العودة من أسرهم قد اقترب جداً، وعن زيادة الاهتمام المسيحى بالأرض المقدسة، عما أسماه بالاهتمام الجديد والرقيق بالعبرانيين من ناحية المسيحيين، وأيضاً تقرب اليهود من المسيحية.

وقد تحدث عن خطة الجمعية لبناء كنيسة أنجليكية فى القدس «إن أمكن على قمة جبل صهيون نفسه»، والتي يتم تحصيل الأموال لها الآن. وكان المبشرون التابعون للجمعية يؤدون الصلوات بالعبرية، حيث لم تقدم أى خدمة پروتستانتية من قبل، «وكانت طائفة صغيرة متدينة من اليهود المتصرين حديثاً تستمع يومياً للحقايق الأنجليكية من كنيستنا على جبل المدينة المقدسة بلغة الأنبياء وروح الرسل»، وبالتأكيد عبر آشلى عن هذا الحديث بأنه أهم حدث تم فى الحاضر، وربما فى أى وقت منذ بدء الفساد فى كنيسة المسيح و«سيؤسس تنصير اليهود تحت

الرعاية البروتستانتية» المبادئ الصافية للإصلاح الدينى الذى تضمنه وترعاه كنيسة انجلترا للأبد.

وقد ترك الأمر الدينى جانباً، ثم بدأ يجذب الانتباه لأهمية تعيين القنصل الجديد، عارضاً مقترحاً أن تربة وجو فلسطين يناسبان المحاصيل الضرورية لبريطانيا العظمى، من قطن وحرير وصبغات وزيت الزيتون، «ورأس المال والمهارات مطلوبان أيضاً»، ويرى أن يأتى ذلك من بريطانيا حيث إن فلسطين الآن تتمتع بوجود القنصل البريطانى، وتأمين الممتلكات الذى يوفره وجوده بالمنطقة. لماذا إذن لا يرى العالم عودة اليهود «الذين لن يقوموا بالزراعة فى أى أرض أخرى والذين وجدوا فى القنصل الإنجليزى وسيطاً بين شعبهم وبين الباشا، والذين سيصبحون مرة أخرى رعاة أراضى يهوذا والجليل».

قد تدهش من ثقة أشلى فى قدرة نائب قنصل وحيد على تحريك إمبراطوريات، بوجوده فقط، ولكن الشقة بالنفس الناتجة عن العصر الفيكتورى، مثل التى كانت موجودة بالعصر الإليزابيثى، هى التى أنشأت الإمبراطورية البريطانية، وكان القنصل يمثل بريطانيا. فما المطلوب أكثر من ذلك؟

أمر وحيد، كان اليهود أنفسهم، أو المكون الأساسى الضرورى، لم يتواجد؛ لأنه حتى ذلك الوقت لم تحدث حركة عودة كبيرة، ليس قبل

جيل لاحق عندما قامت السياسة المعادية للسامية بالضغط الكافي لتدفع اليهود للنشاط الصهيوني، وهى سياسة القياصرة التى كانت سبباً لاستياء العامة. ولكن المعارك والمؤامرات والطموحات المتضاربة حول فلسطين، كانت سبباً لجعل شخص يهودى يأخذ على عاتقه مسئولية إعادة فتح الأرض لجنسه، وكان هذا رفيق آشلى السيد المحسن «موسى مونتيفيور - Moses Montefiore» والذى كان بسبب مشاعره الدينية وتحمسه الشديد مثل آشلى، وإن كان أقل، يؤمن باستعادة الأرض اليهودية كلها، وإن كان من الضروري أن نشير لأسباب كثيرة أن «مونتيفيور» كان يهودياً مؤمناً لكن بطريقة أرثوذكسية، حيث كان يحضر يومياً الصلاة اليهودية فى الساعة صباحاً، وكان يستعمل التقويم اليهودى ورفض حضور تقليده كأمور؛ لأنه كان فى يوم «روش هاشانا - Rosh Hshanan» (أى : رأس السنة) لكن دخوله فى مجال التجارة عوّده على العمل لما يريد وألا ينتظر حدوثه، فلسطين يجب أن تكون لليهود، والقدس مقدره أن تصبح عرشاً للإمبراطورية اليهودية وكونه رجلاً عملياً جعله يقول أيضاً: «ابدأوا فى هذه اللحظة فى بناء المنازل فى القدس، ابدأوا فى الحال».

اعتبر مونتيفيور - مثل ذلك القنصل المتعلم - أن فكرة تنصير اليهود، والتى كانت الفكرة المحركة لدى آشلى، جنوناً، لكنهما بخلاف ذلك لم يكونا مختلفين كثيراً. كلمة «القدس» المحفورة على خاتم آشلى ظهرت على مقعد عربية مونتيفيور بحروف عبرية ذهبية.

كان الاثنان يؤمنان بأنه بمجرد أن يشعر اليهود بتربة فلسطين تحت أقدامهم سيصبحون مزارعين مرة أخرى، وسيزرعون أشجار التين ونبات الكرم، وسيستثقلون وطنهم الأم من الضياع، لقد كانا صهيونيين قبل بدء الصهيونية. أن تكون صهيونيًا عام ١٨٣٠م كان شيئًا مثل أن تكون معاديًا للفاشية في عام ١٩٣٠م. أشلى كان محققًا للسبب الخطأ ومونتيفيور كان محققًا لكن قبل الأوان.

في نوفمبر ١٨٣٨م ذهب مونتيفيور إلى فلسطين، وبفضل نفوذه وثروته وذكرى كرمه في الزيارة السابقة، كانت رحلته في البلاد مثل تقليد ملكي، وكانت وجهته إلى القدس وهو يمتطي جوادًا عربيًا أعطاه له الوالي التركي، الذي أحذه أسفل جبل الزيتون وهو محاط باثنين من الجنود الأتراك في زي الاحتفالات، وقام بين العروض والجو الشرقي - كعادة رجال الأعمال - بفحص المنازل والحالة الصحية العامة وفرص العمل واستصلاح الأرض المتاحة لقوم «شالوكاه» البائسين، والذين عاشوا على الصلاة والعبادة وقراءة التلمود، وعلى قروش صندوق تبرعات القدس بالخارج (لفترة طويلة).

وواصل رحلته يشاهد الناس بمصر مع «محمد علي» الذي طلب من «مونتيفيور» مرة أن يكون وكيل أعماله، فقام بوضع خطة للباشا لبيع الأرض وذكرها بالتفصيل في مذكراته في مايو ١٨٣٩م:

سأعطي «محمد علي» ضمانًا «لمدة خمسين سنة، في ١٠٠ أو ٢٠٠

قرية، سأعطيه إيجاراً متزايداً بنسبة ١٠ إلى ٢٠٪، وسأدفع مجموع المال كله سنوياً في الإسكندرية، وستكون الأراضي والبلاد خلال هذه الفترة معفاة من الضرائب سواء من الباشا أو الوالى للولايات المختلفة، بالملكية التى سأخذها. سأقوم بإرضاء السماء بعودتى لانجلترا وتأسيس شركة لزراعة الأراضى وتشجيع إخواننا اليهود فى أوروبا على العودة إلى فلسطين، أرجو أن أحقق عودة الآلاف من إخواننا لأرض إسرائيل، وأنا متأكد أنهم سيكونون سعداء بممارسة ديانتنا بطريقة مستحيلة فى أوروبا.

ووعده محمد على، وهو يدخن نرجيلته المرصعة بالجواهر، بأى قطعة من الأرض معروضة للبيع فى سوريا ووافق على فعل أى شىء يستطيع فعله، ليسانده فى مشروعه، لكن قبل أن تمر سنة ضعفت سلطة محمد على أيضاً، وعادت سوريا إلى السلطان، ولم تكن فرصة عودتهم مرة أخرى قبل أن تحبط سلاتهم البائسة، وفى نفس الوقت اندلعت حادثة دمشق، والتى شهدت العديد من حوادث القتل ضد اليهود بسبب مقتل الراهب «كابوتشيان - Capuchian»، وتلت كل الأحداث الغاضبة للمذبحة أحداث الشغب بما فى ذلك السرقة والسجن والتعذيب لانتزاع الاعترافات التى دفع إليها ونظمها عملاء فرنسيون تحت النظام الكاثوليكي المحلى، كان هذا جزءاً من الغليان تجاه المسألة الشرقية، والتى بلغت ذروتها فى عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠م فى مواجهة فرنسا. وبالرغم من أن حادثة دمشق كانت مهمة لتطور

القومية اليهودية فى القرن التاسع عشر وتوحيد يهود العالم، فمن المهم هنا أن نذكر أنها أعطت الدافع للتدخل البريطانى لصالح اليهود فى الإمبراطورية العثمانية وأيقظت الرأى العام لحالهم.

وقامت مذكرة وجهت إلى الملك البروتستانت بأوروبا لعودة اليهود تم نشرها بالكامل فى جريدة «التايمز - Times» فى ٩ مارس عام ١٨٤٠م بجذب الانتباه للمسألة الشرقية، والعوامل المهمة الأخرى وقتها، معطية الوقت الملائم «لما هو الواجب الجيد» على المسيحيين البروتستانت تجاه اليهود. بعد ذلك بوقت قصير نشرت الجمعية العامة لكنيسة اسكتلندا تقريراً عن طريق اثنين من مبشريها عن حالة يهود فلسطين، جذبت الكثير من الانتباه، وتبعتها بمذكرة موجهة إلى «پارلمستون»، التى نشرتها جريدة التايمز (عدد ٣ ديسمبر ١٨٤٠م) أوصته بتعيين قنصل للقدس ومد الحماية البريطانية لليهود، وعبرت عن أملها فى أن الأزمة السورية الحالية «سيستج عنها زيادة، وترسيخ فى النفوذ البريطانى فى هذه الأرض المهمة».

وفى نفس الوقت ما كاد مونتيفيور يعود إلى إنجلترا، حتى عاد مسرعاً إلى الشرق مرة أخرى ونجح فى إطلاق سراح المسجونين اليهود بالسجون السورية، ليس عن طريق العفو الذى كان يبغضه ولكن بالبراءة من تهمة القتل، وأيضاً تعويض، وأمر عام من السلطات بحماية ممتلكات وأرواح اليهود، وكان مونتيفيور رجلاً لا يمكن إيقافه

سواء عن طريق المؤتمرات الفرنسية أو إجراءات محمد علي، أو الحرب، لقد أذهل العالم ليس فقط بحصوله على البراءة الكاملة، ولكن على وثيقة أيضاً تضمن من السلطات المعاملة المساوية لليهود بالمواطنين العثمانيين، «وثيقة الحقوق» لليهود في المناطق العثمانية، حصل عليها مونتيفيور بكل فخر وأمل، وقام بالمرور على باريس في طريقه للوطن حتى يعطى بنفسه إلى «لويس فيليب» نسخة من الوثيقة التي حصل عليها لإحباط طموح الملوك في الشرق. واللحظة التي حصل فيها على قمة الرضا النفسى، عندما كرّمته الملكة فيكتوريا عند عودته على «جهوده التي لا تتوقف لصالح الإخوان المضطهدين في الشرق، وبصفة عامة لصالح الأمة اليهودية».

وربما كان اهتمام الملكة له صفة شخصية(*)، «لكن تعليمات بالمرستون بخصوص اليهود لم تكن هكذا. وبينما كان «مونتيفيور» في الشرق كان بالمرستون يرسل العديد من الرسائل إلى «بونسونبي» ومبعوثين آخرين، سلسلة رسائل توضح البداية الرسمية للتدخل البريطاني لصالح الشعب اليهودى واستقرارهم في فلسطين، لقد عقد بالفعل في يوليه «معاهدة لندن»، حيث قام باستعطاف القوى الأربع

(*) عندما كانت الملكة أميرة، قامت هي ووالدتها بتناول الغداء فى منزل «مونتيفيور» الريفى فى «كنت»، حيث كان جارها فى عام ارتقائها للحكم، حيث قامت بتنصيبه فارساً، وهو أول يهودى مناصر يحصل على هذا اللقب، وقبل رحيله لدمشق قابلته الملكة شخصياً لتشجيعه فى أداء مهمته.

لمساعدة السلطان ضد محمد على، والتي تسببت في غضب فرنسا والتعجيل بالمرحلة الأخيرة من المسألة الشرقية.

بينما كان بالمرستون يقهقه بسبب ضربته الشجاعة، وكان مونتيفيور يتقدم للإمام مثل فارس من العصور الوسطى لينقذ إخوانه المجروحين، كان آشلى الذى ما زال مستغرماً في رؤيته النبوية، يستخدم هذه الحادثة أيضاً.

كتب مذكراته في ٢٤ يولييه عن تهمسه لآمال وطموحات الشعب اليهودى «كل شيء يبدو مناسباً لعودتهم لفلسطين، هل من الممكن لقوى الغرب الخمس أن تتدخل لتضمن أمن أرواح وممتلكات اليهود؟ سوف يعودون بسرعة بأعداد كبيرة، ثم بباركة الرب سأقوم بإعداد وثيقة وسأؤيدها بكل الأدلة التى يمكننى الحصول عليها، وبثقتى بحكمة ورحمة الرب، سأقدمها لوزير الدولة للشئون الخارجية.

فى الأول من أغسطس تناولت الغداء مع بالمرستون وقدمت له خطتى التى بهرته تماماً، وقام بطرح بعض الأسئلة ووعد بالتفكير بالأمر».

اعترف آشلى أنه استخدم براهين سياسية واقتصادية وتجارية؛ حيث إن هذه الاعتبارات التى سيأخذ بها وزير الخارجية فى اعتبار الوطن الذى «لا يبكى مثل سيده من أجل القدس»، وهو لا يدري أنه «تم اختياره بواسطة الرب كأداة لصالح شعبه القديم، وللحصول على حقوقهم بدون إيمانه بقدرهم».

يأتى «المرستون» ببراعة ويكتب رسالة إلى «بونسونى» السفير لدى الحكومة العثمانية والتي تم ذكرها آنفاً فى هذا الفصل، يتحدث فيها عن مزايا توطين اليهود فى فلسطين للسلطان ولبريطانيا. وفى نفس اليوم وصل الأسطول البريطانى لساحل سوريا، وظهر مقال أشلى فى جريدة «تايمز» فى السابع عشر، وتبعته العديد من الردود التى آثارها المقال، واقترح أحد الذين قاموا بالرد - وهو شخص مجهول - أن على بريطانيا أن تشتري فلسطين لليهود، واقترح آخر أن عودتهم مسألة سياسية عملية بالنظرية المتفائلة التى تقول: إن استحواذ اليهود على سوريا مرة أخرى سيكون بمثابة إزالة عقبة من بين القوى، وبالتالي ستساعد على نشر السلام العام.

قدم أشلى رسمياً إلى «المرستون» فى ٢٥ سبتمبر وثيقته عن «عودة اليهود إلى أرضهم القديمة». لقد كان إيقاع الوثيقة مملأ؛ لأن أشلى كان يحاول أن يضع سبباً للسياسة الرسمية، جرد قلمه من بهجة الحديث عن «شعب الله القديم» وعودة مملكة المسيح، ولم يستطع - حيث إنه كان معادياً للإمبريالية - أن يتحمس فى الوثيقة لأسباب تدعو لرفع العلم البريطانى على تلك البلاد. قدم ببساطة خطة «لضبط المسألة السورية» ومروجاً لخصوبة الأراضى بين الفرات والبحر الأبيض المتوسط، ويؤكد أن اليهود يعتقدون أن الوقت قد اقترب لعودتهم لأرض فلسطين، وأن خوفهم فقط على أرواحهم وممتلكاتهم يقف دون ذلك، ويقترح أن السلطة الحاكمة للمقاطعات السورية (التي لم تكن محددة فى الوقت الذى كتب فيه هذا) عليها أن تدخل فى ارتباط

مقدس لتؤسس مبادئ وممارسات الحضارة الأوروبية، وأن هذه السلطة يجب أن تحت على سن «قوانين منصفة وحماية منصفة لليهود وغير اليهود»، وأن على القوى الأربع أن تضمن تطبيقها، وأنه يجب أن يتم إلحاق بند خاص بإقرار ضمانهم بالمعاهدة النهائية للمسألة الشرقية. ويسرى هذا الضمان على «أموال وصناعات اليهود الخفية»؛ حيث إن الأراضي الآن لا قيمة لها كمصدر للدخل، فسيتم تطويرها ودفع ما عليها من ديون، ويتوقع المزيد من الجهد من اليهود أكثر من غيرهم بسبب «ذكرياتهم القديمة وحبهم الشديد لأرضهم»، صناعتهم ومثابرتهم ضخمة، يستطيعون العيش بأقل المصاريف الممكنة، وهم معتادون على المعاناة ومتدربون على الطاعة التامة للحكم الاستبدادي، وسيخضعون للحكومة المشكّلة حالياً».

ومثله مثل الذين قاموا بـ «وعد بلفور»، لم يذكر أشلى أى شىء عن إمكانية إقامة دولة يهودية، كان الحذف فى وعد بلفور عمدياً، وكما تم إثباته، فإن هذا كان الخطأ القاتل الذى سبب كل المتاعب، لكن أن يكون أشلى قد فكر بإقامة دولة ذاتية الحكم أمراً مشكوكاً فيه. بالعكس، لقد أكد لـ «الميرستون» أن اليهود سيترفون بالملاك الحاليين للأراضي (الملاك الأصليين العرب)، وسيقبون أن يبدوا اهتمامهم بها عن طريق الإيجار أو البيع، وأضاف: «سيعودون على نفقاتهم الخاصة وبدون أى مخاطر غير على أنفسهم، وهذه ستكون، أرخص وأفضل وسيلة» لاستعمار سوريا، لن يطالبوا الضامين «بأى نفقات مالية»، وأن الفوائد التى ستنتج عن تلك العودة، ستعم العالم المتحضر».

ولم يكن هذا أسلى في أفضل حالاته، ففي محاولته أن يكون خبيراً بالحياة نجح فقط في أن يبدو جشعاً، فكان تقديره لليهود مضحكاً، على الأقل نحن نعرف أنه سيكون هكذا في التاريخ المقبل، لكن يجب أن نتذكر أن أسلى كان يكتب هذا في الوقت الذي كان اليهود أنفسهم لم يفكروا بعد في فكرة الدولة (لم يكن هذا إلا بعد ٥٥ سنة) قبل أن تبرز «دولة هيرتزل اليهودية - Herzl's Judenstaat» بين شعبه، ولقد شهقوا من صدقها.

كان أسلى يكتب قبل أن يولد «هيرتزل» بعشرين سنة، وقبل أن تشكل أول منظمة يهودية لإرسال المستعمرين لفلسطين بأربعين سنة. وأيضاً الفكرة الغربية الخاصة بخضوع اليهود لم تكن نتاج وقته فقط لكن أيضاً نتاج فكره، الذي اعتُبر بطريقة ما عاملاً سلبياً للألفية المسيحية. ولو كان أسلى يفكر بطريقة سياسية أكثر لتذكر المكابيين، وكيف اتخذهم أبوت ألفريك مثلاً للإلهام الشعب الإنجليزي في القومية.

في هذه الأثناء كانت الأحداث تصل لذروتها وبسرعة في سوريا.

في الثالث من أكتوبر، تم قصف بيروت بالقنابل من قبل أسطول «ناير» واستسلمت، وبعد ذلك بشهر سقطت عكا وألهم أسلى ليري إعجاز الرب في البحار الإنجليزي، كما رأى من قبل الرب وهو يهدى ويساعد وزير الخارجية، «إنه شيء يفرح القلب بالفعل أن نقرأ عن

نجاحتنا فى سوريا، والبسالة المنقطعة النظير والإخلاص التام لرجال الوطن. فأبسط ضابط بحرى واحد يفعل أكثر من مائة ضابط تركى . . يا له من سبب للعظمة!.. وبإلها من أداة لإرضاء الرب لاتحادنا وحمائتنا لشعبه القديم ولهدهفه الأخير على الأرض!» .. فى مذكراته يعود أشلى لنفسه.

وفى الشهور التى تليها التى طارد خلالها «ناپير» أسطول محمد على حتى عاد لمصر وأجبره على إعادة الأسطول للسلطان، بلغ التأثير البريطانى على الحكم التركى ذروته. صار بالمرستون الآن ينفذ خطة أشلى لكن بأسلوبه، فذكر بونسونبى فى نوفمبر بدور بريطانيا كحامية لليهود تحت الحكم التركى، وفى فبراير ١٨٤١م أذن للسفير أن يسمح لليهود «أن يرسلوا للحكومة التركية عن طريق السلطات البريطانية، عن أى شكاوى لديهم ضد السلطات التركية».

وفى نفس الرسالة قام مرة أخرى بمناقشة مشروع أشلى، وتقريباً باستخدام كلمات أشلى، حيث كتب وزير الخارجية «إنه سيكون فى مصلحة السلطان أن يحث اليهود المنتشرين فى الدول الأخرى بأوروبا وأفريقيا على الذهاب والاستقرار فى فلسطين؛ لأن الثروات والعادات المنظمة والصناعات التى سيجلبونها معهم ستساعد كثيراً على زيادة مصادر الإمبراطورية التركية ولكى تقوم بنشر الحضارة هناك».

ويجب الضغط على السلطان لكى يعطى «أمن حقيقى وملموس».

وفى أبريل تبع هذا بخطاب غير مباشر لكل القناصلة البريطانيين المقيمين فى الإمبراطورية التركية، يخبرهم فيه أن الحكومة التركية تضمن معاملة منصفة للمواطنين اليهود، ووافقت أن تحاسب عن أى معاملة قاسية تعرف بها عن طريق المسئولين البريطانيين. وقام بإخطار كل ممثلى الدول أن يقيموا «تحقيق دقيق» لأى حالة من هذه الحالات التى قد يعرفون بها، ويقدموا «تقريراً» كاملاً للسفير فى استانبول، ويوضحوا للسلطات التركية المحلية أن «الحكومة البريطانية تريد مصلحة اليهود العامة» (*).

وكان الذى نتج عن خيال آشلى والحقائق الإيفانجليكية قد تحول إلى سياسة رسمية، لكن آشلى قام بدعك مصباحه مبكراً بالنسبة للتاريخ وكان حلمه قصير العمر، عاش لفترة قصيرة على الأرض ثم عاد إلى الزجاجة مرة أخرى، ولم يتم إلحاق الضمان الذى كان يريده فى المعاهدة النهائية للقوى الخمس، لصعوبة إخراج اتفاقية بين خمس قوى ذات مصالح مختلفة، المعاهدة التى ستعرف باسم «اتفاقية المضايق» والتى كانت قاصرة فقط على التحكم فى خليج «البوسفور»

(* نذكر القارئ أنه فى آخر القرن الخامس عشر، لجأ اليهود الفارون من إسبانيا لتركيا، مقر الخلافة الإسلامية لما عرف عنها من عدل وتسامح مع المسيحيين واليهود، أما الادعاء بغير ذلك، فهو كثيراً ما يكون ماثلاً للادعاء بأن مصر تضطهد المسيحيين. وما أشبه سياسة بريطانيا فى ذلك بسياسة الولايات المتحدة اليوم عندما تتدخل فى شئون الدول الأخرى تحت أعدار مختلفة، متعددة ومتجددة.

و«الدردينيل»، ولم يتعد التشجيع على عودة اليهود لفلسطين رسالة بالمرستون الأخيرة في هذا الموضوع في فبراير، ولم يلق «بونسونى» بالاً للفكرة ولم يبذل أى مجهود لينفذها، والسلطان أيضاً لم يكن يحب الفكرة، والكارثة الكبرى حدثت عندما قاوم «المرستون» الأنيق هدير تهديد الحرب الفرنسية، وأتم معاهدة القوى الخمس فى يولييه، وتم نزعه من منصبه عند هزيمة حكومته لموضوع محلى فى أغسطس، وتغيرت السياسة عند مكتب وزارة الخارجية بواسطة الحماسة القديمة للورد أبيردين - كما قال بالمرستون. قابل أبيردين اهتمام سلفه باليهود بنفور ولا مبالاة، مثلما فعل «أسكويث - Asquith» بعد ذلك بخمسة وسبعين عاماً عندما ارتعد للخطة الرائعة لفلسطين التى قدمت لمجلس الوزراء بواسطة «لويد جوزج»، فقام بإخطار يونج القنصل بالقدس أن يحد من الحماية القنصلية إلى «الرعايا والوكلاء البريطانيين فقط».

وصل «المرستون» بالطبع إلى ممارسة تقليدية عندما أذن بالحماية لليهود غير البريطانيين الجنسية، ولكن فعلها عمداً، عندما شجع اليهود غير المعترف بهم كمواطنين فى الإمبراطورية التركية، والذين تتجاهلهم السلطات التركية والمرفوضين كرعايا عن طريق القناصل الأوروبية الآخرين، باللجوء إلى بريطانيا طلباً للحماية، والتى لن يحصلوا عليها من مكان آخر، كان يمهد الطريق لبريطانيا لتصبح حامى الاستيطان اليهودى المستقبلى فى فلسطين.

على كل، لم يعتبر أبيردين أن وظيفة وزارة الخارجية المناسبة أن تطرح أفكاراً، بالذات الأفكار الجديدة، ولا يرى أى سبب للتحرك بعيداً عن القانون(*)، ولكن تهيبه لم يؤثر على الرجال الآخرين بالوزارة، فقد واطب كل من يونج وخليفته بالقسطنطينية فى القدس «جيمس فين» صهر «الرباى» ماكاول وحوارى آشلى فى التدخل لصالح شعب الله القديم عند حدوث أى مشكلة، سواء كانوا مواطنين بريطانيين أم لا.

وبالفعل فإن إمكانية إحياء إسرائيل من وجهة نظر آشلى كانت تبدو فى قمة ازدهارها، بالرغم من تغير الحكومة؛ لأنه على الأقل نجح فى اغتنام أعلى أمنياته وهى بناء أبرشية أنجليكية فى القدس بواسطة الكنيسة الإنجليزية، بيهودى تحول للمسيحية ليصبح أول أسقف لها وكان هذا تويجاً لإنجاز الجمعية اليهودية، علامة إحياء مملكة إسرائيل القديمة بأبرشية للكنيسة الإنجليزية، وكان كل هذا إنجازاً لكل طموحات آشلى؛ لأنه آمن بحماس شديد بـ «نبوءة إشعيا».

- كانت الأبرشية تتوق لرعاية الملك البروتستانتى «فريدريك وليام
- «Fredrick William» ملك «بروسيا»(**) وممثل دولته «شيفالير بنسن
- «Chevalier Bensen» الذى عين لانهجترا لسبب خاص وهو مساندة

(*) هذا تعبير محوّر عن المعنى الأسمى، وهو «ضد القانون».

(**) جزء من ألمانيا.

آشلى فى مشروعه، كان أكثر جهد مشترك لهما أن يتغلبا على المعارضة التى تنشأ من القضايا العقائدية التى واصلت تأجيج العصر الفيكتورى. وعبرَ حزب الأنجلو-كاثوليكي لحركة أكسفورد، التى كانت تحاول التوفيق بين الكنيسة الإنجليزية وكنيسة روما، عن استيائهم بأن تلك الأبرشية ستكون خطوة منحازة للبروتستانتية الصغرى، وكان «جلادستون» الذى كان صوتًا كبيرًا وقويًا فى الكنيسة الكبرى «منزعجًا ومحتارًا» وأفرغ ذلك فى الخطاب الذى أرسله إلى «بنسن» ويبلغ ٢٤ صفحة، يؤكد فيه أن غموض الخطة والجديد الذى تجلبه، قد أثرا تأثيرًا شديدًا على أعصاب مواطنيه.

أسرع بنسن وحاول استيضاح الحيرة فى مناقشة ظلت لمدة ساعتين. وسأل جلادستون: «ألن تفعل شيئًا لتستفعا من الأوضاع السياسية فى تصادفها مع أعراض إحياء الصهيونية؟».

بعد ذلك رتب آشلى لقاءً بين بنسن وبييل، الذى سيصبح رئيس الوزراء الجديد، ويهمس فى مذكراته بأمنيته أن يكون لدى بييل قلب مثل قلب «سليمان» كبير مثل رمال البحر؛ لأن هناك الآن قضايا ضخمة كافية لتملاه فرصة «زرع - تحت راية الصليب - شعب الله على جبال القدس».

ولم يعترض بييل، وبعدها بأسبوع فى (١٩ يولييه) جاء الدور على بنسن ليقول بعد مقابلة مع بالمستون الذى لا يزال بالوزارة: «إنه يوم

عظيم . . تم الاعتراف بالمبدأ، لذا بدأت البداية لإحياء إسرائيل وإرضاء الرب».

جاءت الآن أعظم لحظات أشلى لاختيار الأسقف؛ حيث إن بالمرستون سيوافق على أى شخص يقوم بتعيينه، واقتراح ملك بروسيا «ماكاول» لكنه رفض بسبب أنه كان يريد أن يتولى المنصب شخص من أصل عبرى، وأشلى كان يوافقه الرأى، وتم وقوع اختياره على المبجل الطبيب «أليكساندر» وهو إسرائيلي ينتمى للكنيسة الإنجليزية وأستاذ للعبرية والعربية بـ «كلية كنجز - King's College».

وتمت الموافقة على الاختيار، ثم ظهر عائق عندما كتب «بالمرستون» من استانبول أن السلطان رفض بناء كنيسة فى القدس، لكن بالمرستون أصر، وقال لـ «أشلى»: «لقد كتبت للورد پونسونبى لحشه على بذل قصارى جهده فى الأمر وأوصيه أن يقوم بالتأثير المطلوب على كل من السلطان والسفير».

وفى ٢٣ سبتمبر أصدر البرلمان قانون إنشاء أبرشية القدس، وتسلم أشلى خطاباً يخبره عن «الجيشان الكبير الذى أثارته القضية اليهودية فى «ليفربول»، وتم إلقاء ٢٤ موعظة فى أحد أيام الأحاد فى صالحنا» جاعلين اليهود بالفعل الموضوع المفضل للمجتمع الإنجليزى، لكن الحماس لم يكن عامًا، كان هناك من عارض الموضوع من الناحية العقائدية، بعض الأشخاص الذين احتفظوا باحتقارهم لأى حماس

لكل الديانات واعتبروا المسألة كلها حماساً موجهاً بطريقة خاطئة. «كل الشباب جن جنونهم بالدين»، هكذا تدمر اللورد «ميلبورن» رئيس الحكومة.

لكن وزارة المحافظين الجديدة التى يرأسها بيل اكتسحها مد الحماس إن لم يكن الابتزاز لتقبل آشلى، الذى قام بتحذير أيردين بمشاعر البلد الجياشة وبعواقب إعاقة الأمر، وهو بنفسه كان يؤمن أن «حب شعب الله» المتجسد فى الأبرشية هو أكثر مبادئ المحافظين أهمية، وسوف ينقذ البلاد، وفيما يبدو أن هذه كانت وصفته للأزمة الحالية التى أحدثتها مجاعة القمح التى كانت تحتاج البلاد.

وعلى أى حال كانت مجهوداته فى هذا الوقت ناجحة. وأكد له بيل أنه لن يقوم بوضع أى عوائق، وحتى أيردين ارتاح، واعترف بنسب أنه قام بالبكاء من منظر صديقه العزيز «آشلى» النبيل لهذا العالم، الذى حقق أشياء جيدة كثيرة.

كل شىء الآن جاهز للتكريس، توالى الخطابات بين ملك بروسيا وآشلى وبنسن. لم يقم الملك منذ أيام دافيد بلفظ مثل تلك الكلمات. قال آشلى هذا بتعجب عندما استلم رسالة تشجيع من «فريدريك ويليام»، حتى إن الكثيرين من رجال الكنيسة الكبرى انضموا لهم بما فيهم الكاردينال مانينج وأخيراً جلاستون الذى على حد قول آشلى «تجرد من زى حزب المعارضة العقائدية وتكلم مثل رجل تقى واقترح

نخبًا للأسقف الجديد»، طبقًا لـ «بنسن» قام بإلقاء خطبة بليغة، كانت مثل شعاع لطيف نصف شفاف، وهو وصف ملائم لخطبة جلادستون.

جلس رئيس أساقفة «كانتربرى» الذى سيقوم بإقامة المراسم مع أشلى بالمكتبة لمدة ساعتين يتحدثان عن اليهود. «الرجل العجوز المخلص مفعم بالحماس والإيمان للقضية»، وأكد أن «القضية متأصلة فى قلب إنجلترا»، ستقام الخدمات المقدسة فى ١٢ نوفمبر. تغلب الطموح على الجميع، بالنسبة لـ «أشلى» كانت هذه ذروة كل ما قام به من عمل، ويجدها «أمر مثير أن يرى العبرانيين يعينون عن طريق الكنيسة الإنجليزية ليحملوا إلى المدينة المقدسة الحقائق والبركات التى حصل عليها غير اليهود منها»، ربما سيحاول المعارضون «أن يخفوا حقيقة أنهم لا يقبلون أن أمة اليهود ترتقى لتتولى مهام الأساقفة، فليكن، يمكننى أن أحتفل على قمة جبل صهيون كعاصمة، وبكنيسة فى القدس، ووجود ملك عبرانى».

سيقوم الأسقف أليكساندر بالوعظ لأول مرة فى ١٨ نوفمبر فى «الكنيسة اليهودية» كما أطلق عليها أشلى، وفى التاسع والعشرين سيبدأ فى القدس. وفى اللحظة الأخيرة حدثت مفاجأة عندما رفض بيل أن يأخذ فى قارب تابع للحكومة الأسقف إلى سوريا، التى اعتقد أشلى أن مستواه يتطلب ذلك، وتحدث بيل عن غضب الحكومة التركية وأراد أن تتم الأمور فى هدوء.

وقال فى غضب: «لا أفهم لماذا يجب علينا أن نعطيه قارباً؟»، فكتب الرد عليه: «سأقول لك لماذا: ملك أجنبي (ملك بروسيا) ساهم بنصف تكاليف أبرشية إنجليزية، والشعب البريطانى ساهم بالنصف الآخر، وهذا يظهر الاهتمام الشديد والجارف، وكل ما نريده من حكومتنا هو أن تقرضنا قارباً ليأخذ الأسقف».

قال بيل: إنه سيتحدث إلى أبيردين، وهكذا انتهت محادثة قصيرة وأيضاً غير مريحة وكريهة، ولكن لمفاجأته، تغلب آشلى عليه، فبعد ثلاثة أيام قام بيل بإصدار الأوامر اللازمة للإمبريالية البحرية ليتمكنوا الأسقف من السفر بواسطة قارب من الحكومة.

ثم جاءت أخبار أن الحكومة التركية ألغت تصريحها بإقامة كنيسة، لكن پونسونى لمرة واحدة أثبت شجاعة، وأرسل رسالة «تهديد» شجاعة إلى السلطان، وحتى أبيردين احتقر هذه الإهانة، على كل حال، بعد ذلك عاد إلى تهيبه المعهود وأمر يونج فى القدس أن «يمنع بحرص» عن تعريف نفسه كخادم للملك، بأى طريقة مع مهمة الأسقف، أو التدخل بأى شكل بين المواطنين اليهود والحكومة التركية.

لكن لم يلق أى شخص بالأل لـ «أبيردين»، وبالنسبة لـ «آشلى» كان قد تم الوصول للهدف الأسمى، لتعزير الحقيقة البروتستانتية ورفاهية إسرائيل، وإعداد مملكة الرب المباركة.

وماذا بعد ذلك؟ ماذا عن الآمال العظيمة لتتحقق؟، الحقائق

العظيمة لتتشر الضوء العظيم الذى أشرق على العالم من أبرشية أنجليكية فى المدينة المقدسة يدعو شعب الله القديم للوطن؟ الحقيقة المؤلة هى أن أحداً لم يرَ هذا، البابوية لم تذبل، الپروتستانتية لم تتقدم، واليهودية لم تتغير، والحادث غير العادى - والذى تم نسيانه - والذى أضاف درجات كثيرة من الحرارة على الجدل الدينى فى العصر الفيكتورى لخصه فى تقرير كتبه مسافر إنجليزى هو «إ. واربرتون» صاحب كتاب «الهلل والصليب» حيث قام بزيارة كنيسة الأسقف أليكساندر فى عام ١٨٤٤م فى القدس، ووجد مجموعة مصلين مكونة من ثمانية يهود تحولوا للمسيحية، وسائحاً أو اثنين، «جبل صهيون ليس المكان المناسب لكى يضحى اليهود بديانة آبائهم»، أخبر شخص عبرانى واربرتون بهذا، ويبدو أنه لم يفكر أى شخص فى انجلترا بهذا.

نعى أشلى فقط موت القس أليكساندر سنة ١٩٤٥م والذى جاء فى توقيت غير مناسب، وكان أشلى هو الوحيد الذى سمح لهذا الشك أن يخترق عقله، لقد كان يتساءل قائلاً: «هل نحن قمنا بتصور مشروع فحسب ثم بعد ذلك تخيلنا أنه أحد أوامر الرب؟».
